مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: التوقيعات السلطانية في العصر العباسي الأول: خصائصها البلاغية ومظاهرها الملوكية
اسم الكاتب: محمد عبدالله الياسين، صلاح محمد جرار
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/9270
تاريخ الاسترداد: 2026/11/01 17:44 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية



المجلد 20، العدد 2
ذو القعدة 1444 هـ / يونيو2023م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

يونيو 2023م مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد 20 العدد 2
https//:doi.org/10.36394/jhss/20/2/4

التَّوْقِيْعَاتُ السُّلْطَانِيّة فِيْ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ: خَصَائِصُهَا البَلَاغِيَّةُ ومَظَاهِرُهَا المُلُوكِيَّةُ

محمد عبد الله الياسين[1]

صلاح محمد جرّار[2]

تاريخ الاستلام: 15/07/2021 تاريخ القبول: 13/12/2021

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث محورين من محاور فنَّ التوقيعات العربية في العصر العباسيّ الأول: المحور الأول الذي ينظر في خصائص التوقيع الأدبيِّ عامةً من إيجاز وبلاغة وإقناع، كما أضاف الباحث شرطاً آخر لم يتناوله النقاد من قبل - فيما نعلم - هو الكتابة والتضمين؛ أما المحور الثاني فهو التدقيق في مظاهر التوقيعات الملكية والسلطانية خاصةً، ويستعرض أهمَّ محدِّدات التوقيع لجهة المصطلح والتعريف، ويمثّل لذلك بالأمثلة المجتباة من مظانها؛ ليشدَّها بأسبابها ويربطها بصلاتها المنوطة بقائليها.

والبحث أسلوبٌ استقرائيٌّ للإجابة عن سؤال يبحث في مقاييس التوقيع النقدية والبلاغية، وفي إمكانية إيجاد ملامح خاصة بالتوقيع الملكيّ تنعكسُ من خلالها مظاهرُ الحياة السلطانية، وتقومُ بتظهيرِ صورَها المعنوية الدالة على سلطان القائل وسموِّ مرتبته وثرائه ورفاهية عيشه، مع مراعاة المقام والمقال، والنظر في ظروف القائل وأحواله وخصاله بقدر المستطاع.

وقد خلصَ البحثُ إلى أنّ للتوقيعات سماتٍ ملكيةً ظاهرةً يمكن الاستدلال عليها من وحي التوقيع الذي تظهر به سلطةُ الخليفة أو الملك أو الأمير وذوي الحاكمية من الوزراء والقادة وأمثالهم، كما أنّ الظرف السياسيّ الذي مرَّت به دولة بني العباس في بداياتها قد أثر في توقيعات خلفائها وقادتها تأثيراً بيِّناً، وإنْ ظلت الملامح الوجدانية والخِصَال الأخلاقية والقدرة على البيان مسيطرةً على شكل التوقيع وإخراج صورته النهائية.

الكلمات الدالة: توقيعات، الخليفة، العباسيّ، العَصْر، مَظَاهر، مَلَكي، مُلُوكيّ.

(1) كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة الشارقة (الشارقة - الإمارات العربية المتحدة)
u18104407@sharjah.ac.ae

(2) كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة الشارقة (الشارقة - الإمارات العربية المتحدة)

التوقيع فنٌّ أدبيٌّ رفيعٌ وصياغةٌ موجزةٌ بارعةٌ تُحرَّر في مساحةٍ فارغةٍ من رقعة السائل أو رسالة المتظلِّم أو القصص المرفوعة إلى صاحب الأمر للردِّ على سؤاله أو الحُكم له أو عليه، ومعظم التوقيعات ديوانيةُ الأصل، بمعنى أنها كُتُبٌ رسميةٌ في غاية الاختصار تصدُر من مراتبَ عليا كالملوك والخلفاء والقادة إلى جهاتٍ تنفيذيةٍ فرعيةٍ أو إلى جماعاتٍ وأفرادٍ للعناية بمحتوى التوقيع والقيام على تنفيذه.

ولأنّ التوقيعات تحمل دلالاتٍ مكثفةً ورموزاً وإشاراتٍ فنيةً، ولأنها فنٌّ إنشائيٌّ أصلاً فقد أُدرجت باكراً ضمن الفنون والأغراض النثرية، كما خصّها كبار المدونين بأبواب خاصة عُنيت بجمعها ونسبتها إلى قائليها في مؤلفاتٍ كثيرةٍ من مثل "العقد الفريد" لابن عبد ربه (328) هـ، و"خاصّ الخاصّ" للثعالبيّ (429)هـ، و"التذكرة الحمدونية" لابن حمدون(562) هـ، و"صُبح الأعشى" للقلقشنديّ (821) هـ وغيرها.

أما في العصر الحديث فقد قام كلٌّ من محمد الدروبي وصلاح جرّار بجمع هذه المادة الضخمة في جمهرةٍ واحدة أطلقوا عليها عنوان "جمهرة توقيعات العرب" ومهَّدوا لها بمقدمة نقدية ضافية، وقد وفّرت هذه الجمهرة على الدارسين لفنّ التوقيع جهداً عظيماً، واختصرت لهم مشقّة البحث والتنقيب في المدونات، فاعتمدوا عليها في دراساتهم ومقارناتهم وأفادوا منها الشيء الكثير، وقد اعتمد جُلُّ هذه الدراسة أيضاً على تلك الجمهرة مصدراً أوليّاً لمادة البحث والتحليل فيها.

كما جذب التوقيع بفنيّته العالية وتقنياته الجمالية أقلام الباحثين إليه، فصدرت عدة دراساتٍ تناولته بالتأصيل والتحليل وتعرضت له بالنقد والمقارنة، ولعلّ أهم تلك الدراسات البحث الموسوم بـ " فنّ التوقيعات الأدبيّة في العصر الإسلاميّ والأمويّ والعباسيّ" لحمد بن ناصر الدخيِّل، والمنشور في مجلة أم القرى سنة 1422هـ/2001م، وقد عرض فيه المؤلف لنشأة الكتابة عند العرب ليربطها بفنون التوقيعات، ثم تناول مصادر التوقيع الأدبية من كتب التراث، ودرس أنواعاً من التوقيعات وفقاً لمصادرها كالقرآن والحديث والشعر والحكمة... كما أصّل لجنس التوقيعات فردّ التوقيع العربي الأول إلى خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم أورد طائفةً من التوقيعات بدءًا من العصر الإسلامي فالأموي، فالعباسي الذي يعدّ العصر الذهبي لهذا الفنّ الأدبي.

أما البحث الثاني فهو "فنّ التوقيعات في النثر العربي: تأصيلٌ وتحليلٌ" لسامية حمدي صديق، المنشور في مجلة كلية الآداب بجامعة المنصورة لعام 2005م، وأهم ما في هذه الدراسة تأصيلها لفن التوقيع وتخليصه من شبهة الأصل الأعجميّ أو الفارسيّ، والبحث في مراتبه وأقسامه، ثم تناولت الدراسة نماذج من التوقيعات للملوك المتقدِّمة فالخلفاء الراشدين مروراً بخلفاء بني أمية وبني العباس، ولم تهمل توقيعات القادة والوزراء والنبلاء وغيرهم إذ ألحقتهم بتلك الأنموذجات المذكورة، كما عرضت في القسم الأخير من بحثها لخصائص التوقيع ودور القرآن الكريم في بنائه ومدِّه بمعينٍ من الرموز والإشارات والاختصارات المهمة.

أما الدراسة الثالثة فهي لمحمد ونيس القاضي، وهي منشورة في مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية بجامعة زليتن سنة 2016م تحت عنوان "فنّ التوقيعات في الأدب العربي"، اقتصر فيها الباحث على مفهوم التوقيعات، ونشأتها، وتطورها، ثم عرض لأمثلة سريعة من التوقيعات العربية بدءاً بعصر الخلفاء الراشدين وانتهاء بالعصر العباسي.

وهناك أبحاثٌ أخرى تناولت التوقيع بالتمحيص والاهتمام لا تقلُّ أهميةً عن الدراسات المذكورة سنعرض لها في درج هذا البحث، وكلُّ تلك الدراسات تتقاطع في الإشارة إلى أهمية التوقيع والتعريف بمصطلحه، والتعرض لمصادره والرجوع إلى عصوره وأعلامه؛ أما ما نحن بصدده فهو استكمالٌ لتلك الدراسات التي أشرنا إليه وبناءٌ عليها، فهو يتقاطع مع تلك الدراسات حيناً ويستكمل ما أغفلته حيناً آخر، فمما يتقاطع به مع تلك الدراسات التعريفاتُ والمصطلحاتُ المحدِّدةُ لمفهوم التوقيع، أما ما استكمله فهو التنبيه إلى شرطٍ من أشراط التوقيع وهو "الكتابة على رقعة المرسِل" حيث إن الردّ الشفوي على المتظلم لا يُعدُّ من التوقيعات، ولا حتى الكتابة إليه في كتاب مستقلٍ عن رسالته يمكن أن يكون توقيعاً، كما تطرق البحث لنوعٍ من التوقيعات لم نعثر عليه فيما وقع بين يدينا من الدراسات، وهي التوقيعات على الجدران والصخور وما أشبه ذلك، لكنّ الإضافة الأهمّ كانت في دراسة المظاهر السلطانية للتوقيعات في فترةٍ محدودةٍ بالعصر العباسي الأول، والمقصود بالمظاهر السلطانية هو إشاراتُ القوة والأبّهة والثراء والحزم والسلطان في تلك التوقيعات، وتمظهر شخصيات الخلفاء والملوك في توقيعاتهم، ثم تأثير سياسة الدولة وأطوارها في طريقة التوقيع واصطفاء مصادره وأثرها في جماله ورونقه.

أولاً- مصطلح التوقيعات: للتوقيع في اللغة عدّة معانٍ أشارت إليها المعاجم ومصادر العربيّة، فإذا ما عاد إليها الباحث ليستطلع جذور التسمية صادفته تشعباتٌ لغويةٌ متعدّدةٌ من الجذر اللغويّ (وَقَعَ)، ومجمل هذه التشعبات تدور حول تظنّي الشيء وتوهّمه، أو إصابة المطر لبعض الأرض وإخطاؤه بعضها، ولربما قيل إنه من آثار الدَّبَر في ظهر الدّابة[1] وهو سحجٌ ينحصّ منه الشعر فيظهر الجلد، ومنه حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما سأل: "مَن يدلُّ على نسيجٍ وحده؟ قالوا: ما نعلمه غيرك، فقال: هي إبلٌ موقَّعٌ ظهورها"[2] يشير إلى الإبل التي أصابها الدَّبَر يعيب بها نفسه.

وكلّ تلك التفسيرات اللغويّة تضع التوقيع في خانة الجزء من الكلّ أو الخطأ من الصّواب، فالدَّبَر الذي هو آثار الرّحل في ظهر الدّابة يقع في أجزاء من ظهر الناقة، كما أنّ المطر يصيب بقعةً من الأرض ويخطئ أخرى، وهكذا...

(1) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن عليّ أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور (ت 711) ه، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج8، ص406.

(2) لسان العرب، ج8، ص406.

وقد يكون سبب تسمية التوقيع عائداً لما يتركه كاتبه من أثر على الكتاب المرفوع إليه أو راجعاً للتأثير في الشيء؛ لأنه أوقع الأمر فألزم المأمورَ بالتنفيذ والتحقيق، يقول البَطَلْيَوسيّ: "فكأنه سُمّي توقيعاً؛ لأنه تأثيرٌ في الكتاب؛ أو لأنه سببُ وقوع الأمر وإنفاذه من قولهم: أَوْقَعْتُ الأمرَ فوَقَعَ"[1] والاحتمال الثاني أقرب إلى الواقع والمنطق لارتباط التوقيع بأصحاب الرّياسات وأولي الأمر والسّلطان، فالتوقيعات التي كانت تصدر عن دواوينهم ما هي إلا أوامر ومراسيم ملكيّة قطعية الحكم واجبة التنفيذ.

أمّا المعنى الاصطلاحي للتوقيع فهو أن يكتب الخليفة أو الملك أو أحدٌ من أهل الرّياسة والسلطان على ظهر الرسالة أو في هوامشها، أو بين سطورها أو في أية مساحةٍ فارغةٍ منها عبارةً موجزةً تبيّن رأيه في فحوى تلك الرسالة وحكمه بمقتضى ما ورد فيها، وغالباً ما يكون التوقيع بلونٍ يختلف عن خطّ الرسالة الأصليّة ليكون بارزاً فيها، يقول الأزهريّ نقلاً عن ابن الأنباريّ في التوقيع مشيراً إلى موقّع الكتاب أو الرّقعة أو المَظْلمة: "أنْ يُجْمِلَ بين تضاعيف سطوره مقاصدَ الحاجة، ويَحذفَ الفضول"[2] أمّا القلقشنديّ فقال عن التوقيع: "اسمٌ لما يُكتب في حواشي القصص، كخطّ الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدّم"[3] أما ابن خلدون فيقول مبيّناً الصورة التي كان عليها السلطان والكتّاب في عصره عند النظر في القصص والمظالم وطريقتهم في التوقيع عليها: "ومن خطط الكتابة التوقيعُ، وهو أن يجلس الكاتب بين يديِّ السلطان في مجلس حُكمه وفَصْله، ويوقّع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقّاة من السلطان بأوجز لفظٍ وأبلغه"[4].

وليس التوقيع ترفاً أدبيّاً وزُخرفاً لفظيّاً لتزيين الرّسائل والرّقاع فحسب، وإنما كان وليد حاجةِ الحكام إليه ومناسبته لظروفهم ومكانتهم وتعبيره عن سطوة سلطانهم، فباتساع الفتوحات وتنوّع حاجات الناس وضيق الوقت بذوي السلطان، وتكدّس الرقاع والمظالم؛ لم يعد بوسع الخليفة ولا ديوانه أو كاتبه الرّد على القدر الكبير من تلك المطالب برسائل وردود طويلة مفصّلة، فكان التوقيع بإيجازه ومدلوله العميق حلّاً لتلك المعضلة، يقول أحد الباحثين في التوقيع ملخّصاً الأسباب والظروف التي دفعت باتجاه ظهور التوقيعات: "حين اتّسعت رقعة الدّولة الإسلاميّة، وتنوّعت شؤونها، وكثرت مطالب الناس وحاجاتهم، وتطلّبت بعض المواقف سرعة البتِّ فيها، ومع كثرة

(1) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيّد البَطَلْيَوسيّ (ت 521) ه، تح: مصطفى السّقا، و د. حامد عبد الحميد، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1996م، ج1، ص196.

(2) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهريّ الهرويّ (ت 370) ه، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 2001م، ج3، ص24.

(3) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت 821) هـ، ج11، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ص114.

(4) مقدّمة ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون الإشبيلي (ت 808) هـ، ج1، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 2004م، ص430.

شواغل الخلفاء والحكام والقادة، وتمكّنهم من اللغة العربيّة، ودقّتهم في التفكير، وسرعة بديهتهم؛ كلّ ما سبق أدى إلى ظهور هذا اللون الجديد من الكتابة الذي سُمّي بالتوقيعات"[1].

وقد نشأت التوقيعات عربيّةً خالصةً في أرض العرب قبل أن تتاح لهم فرصة الاطلاع على آداب الآخرين وأساليبهم في الحكم وسياسة الدّول، فقد أثبت عددٌ من الدارسين عشرات التوقيعات للخلفاء الراشديّن وخلفاء بني أميّة قبل أن تلبس الدّولة العباسيّة لبوس الفارسيّة، لا بل إنّ باحثَيْنِ زعمَا أنّ أوّل توقيع في العربيّة كان بيد النبيّ صلى الله عليه وسلم في ردّه على رسالةٍ من مسيلمة الكذّاب، وقد أورد هذان الباحثان في مقالٍ لهما ما يربو على مئة توقيعٍ من توقيعات الخلفاء الراشديّن وخلفاء العصر الأمويّ[2].

ومحصّلة القول: إنّ العرب عرفوا التوقيع في صدر الإسلام وازداد اعتمادُهم عليه بقدر الحاجة إليه بعد الفتوحات، وأمّا الزَّعم بأنّ العرب لم يعرفوا التوقيع إلا عن طريق الفُرس، فهو كلامٌ له ما ينقضه من توقيعات عربية إسلامية مبكرة قبل إنشاء دواوين الخلافة؛ مع الانتباه إلى القدر المشترك بين الأمم في هذا الجانب[3].

ويكاد يكون التوقيع فناً ملكياً خالصاً؛ إذ ارتبطت نشأته بالخلفاء وذوي الرياسات، وتبينت مراسمه في دواوين الملوك ودور الخلافة، ومن ينظر في مجموع توقيعات العرب يلاحظ أنّ الجزء الأكبر والصّبغة الغالبة عليها هي صبغة الملوكية وسيماء ذوي الأمر القاطع من الأمراء والوزراء والقادة الكبار، كما أنّ كلّ حديثٍ عن التوقيعات لا بدّ أن يرتبط بالحديث عن الملوك والسلاطين، إذ يستدعي كلٌّ منهما الآخر كون التوقيع من المكاتبات التي لا غنى للملوك عنها، ففي حديث البَطَلْيَوسي عن عادة الملوك في التوقيعات يقول: "وأمّا التوقيع فإنّ العادة جَرَت في كلّ كتابٍ يكتبه الملك أو من له أمرٌ ونهيٌ، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عُرْضه، بإيجابِ ما يُسأل أو منعه، كقول الملك: ينفذُ إن شاء الله، أو هذا صحيح. وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب: لتُردّ على هذا ظلامته، أو ليُنظر في خبر هذا، أو نحو ذلك"[4].

---

(1) التوقيعات فنّ أدبيّ نسيناه، د. يسري عبد الغني عبد الله، الموقف الأدبيّ، اتحاد الكتّاب العرب، ع 413، 2005م، ص97.

(2) انظر: التوقيعات حتى نهاية عصر بني أميّة، جمع وتحقيق ودراسة: د. خالد محمد الهزايمة، د. عدنان محمود عبيدات، مجلة التراث العربيّ، ع 106 - نيسان (أبريل)، 2007م، ص157 وما بعد.

(3) من الإنصاف أن نذكر بأنّ نشأة التوقيعات لم تحظ بقدرٍ كبيرٍ من الاتفاق بين الباحثين، فقد مال د. شوقي ضيف في "العصر العباسي الأول" (ص489)، والأستاذ أحمد أمين في "ضحى الإسلام" (ج1، ص206) إلى القول بفارسية التوقيعات؛ وثمة آراء أخرى لم تتبنَّ ذلك الاتجاه، ودللت على الأصول العربية للتوقيعات بطائفةٍ من توقيعات الخلفاء الراشدين والأمويين، من مثل د. عمر فرّوخ في "تاريخ الأدب العربي" (ج1، ص254)، ود. محمد نبيه حجاب في "بلاغة الكتّاب" (ص97)، ود. سامية صديق في "فن التوقيعات في النثر العربي: تأصيل وتحليل" (مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع 36، 2005م، ص86) وغيرهم.

(4) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ج1، ص159.

ويقول القلقشندي عن مهنة الكاتب والكتابة: "وأمّا تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، كالتوقيع بخطّ الخليفة أو السلطان أو الوزير، أو صاحب ديوان الإنشاء..."(1).

ولأنّ التوقيع يرتبط بالمُلك والرّياسة فقد كان له أثرٌ بارزٌ في سياسة الدّولة وشؤون الناس فيها، فلكلّ قصّةٍ توقيعٌ يُنفِذُها أو يردّها أو يوجّه أهل الاختصاص بالنظرِ فيها، ولكلّ رقعةٍ حكايةٌ من هموم الرعيّة على اختلاف طبقاتها ومستوياتها ينتظر صاحبها الرّد عليها، فإمّا نُظِر إليه بعين الرّضا والإحسان وإمّا بعين السّخط والغضب؛ لذا فالتوقيعات كانت جزءاً مهمّاً من المحرك الرئيس لسياسة الدّولة وقراراتها الخطيرة أو الحقيرة على السّواء، يقول أحد الباحثين: "والذي جعل للتوقيعات هذه القيمة السياسيّة هو أنها ارتبطت منذ نشأتها بدواوين الخلفاء والوزراء، وكانت إحدى الوسائل المباشرة - مثلها مثل الرّسائل والخطب- لتوجيه السياسة العامّة للدّولة"(2).

واستناداً إلى ذلك يمكننا تخيّل القدر الهائل من التوقيعات التي اندثرت بفعل الحوادث والزّمن، فما وصل إلينا منها إلا النّزر اليسير أو أقل من القليل، لكنّ هذا الأقلّ كان له فضيلة إطْلاعنا على وسيلةٍ أدبيّةٍ راقيةٍ كان لها أشدّ الأثر في حياة الناس والدّول.

وأغراض التوقيع كثيرةٌ متنوّعةٌ، ومراميه عديدةٌ ومتفرّقةٌ، فمنه ما يختصّ بنصح صاحب الرّقعة وإرشاده إنفاذاً لحلّ مشكلته، أو تأييداً لحلٍّ اقترحَتْه الرّقعةُ أو جاءت به الرسالة، وقد يكون إذناً من الملك أو الوزير لمن هو دونه بحرية التصرّف والاجتهاد في مسألةٍ من المسائل.

كما تظهر حالاتٌ كثيرةٌ من الارتجال والمزاجيّة في التوقيع، فيبرز فيها التهديد والوعيد، والتوبيخ والتقريع، أو الميل إلى المزاح والمرح، أو الضّحك والهزل في إبداء الرّأي بمحتوى الرّقعة، وقس على ذلك من التقلبات الانفعاليّة التي تترك انطباعاً واضحاً عن التوقيعات وأثرها في مصائر الناس في تلك الفترة.

ثانياً- معايير التوقيع:

ليس كلّ كلامٍ قصيرٍ أو فكرةٍ مكثفةٍ أو ردٍّ على كتاب يقع ضمن التوقيعات، وإنما وَضعَ لها الدّارسون مقاييس ومعايير أدبيّةً لا تحيد عنها، فإن شذت عن تلك المقاييس خرجت من جنس التوقيع، ومن أهمّ تلك المعايير:

1. **الكتابة والتضمين:** إذ يُشترط في التوقيع أن يكون مكتوباً بخطّ صاحبه أو من ينوب عنه

(1) صبح الأعشى، ج1، ص52.

(2) فنّ التوقيعات الأدبيّة في العصر الإسلاميّ والأمويّ والعباسيّ، د. حمد بن ناصر الدخيّل، مجلة أمّ القرى، مجلد13، عدد22، ربيع الأول، 1422ه، ص.

على ظهر كتابِ المرسِل أو حكايته، أو في مساحةٍ فارغةٍ من هوامشه أو بين أسطره، وأن يكون ردّاً بوجهٍ من الوجوه على صاحب الرسالة، فإنْ كان الكلام شفويّاً، أو كان الرّد في كتابٍ مستقلٍّ عن الرّقعة أو القصّة المرسَلة خرجَ عن كونه توقيعاً إلى نوعٍ آخر من أنواع التواصل أو المراسلات، فالأجوبة المُسكتة مثلاً وإنْ كانت موجزةً وبليغةً وقاطعةً لا تقع في دائرة التوقيع، لأنها لم تصدُر عن أصحابها محررَّةً ردّاً على السائلين أو المنتقدين، كما أنّ جواب الرسالة في كتابٍ منفصلٍ عنها لا يُعد ضرباً من التوقيع وإنْ حقّق شروطه المعروفة من إيجاز وبلاغة وإقناع؛ ذلك لأنه لم يُضمَّن في رقعة المرسِل، وقد يكون مِن الأفضل إدراجه حينذاك في أبواب الرسالة لا التوقيع حفاظاً على حدود المصطلح، وتجنّباً للوقوع في اللبس أو الإيهام والتمويه.

2. **الإيجاز:** يُعدّ الإيجاز سمةً بارزةً من سمات التوقيعات؛ فالموقّع يلجأ إليه لاستثمار الوقت والمساحة المتاحة على الرقعة في الردِّ على أكبر عددٍ ممكنٍ من القصص والرّسائل والرّقاع المرفوعة إلى الملوك والأمراء، فكانت التوقيعات تصدر عن الدّواوين موجزةً بألفاظٍ معدودةٍ، تحمل دلالاتٍ معنويّةً مكثفةً وموحيةً، مع تركيزٍ شديدٍ على الفكرة مزيَّنةً بأجمل الصور وألطف الإشارات، فتخرج التوقيعات أشبه ما يكون بضربِ الأمثال على الرّقاع المرفوعة، في أبهى حلةٍ وأفخم جملةٍ تليق بالملوك وأصحاب الجلالة والسلطان، فالإيجاز "يعدّ بحقّ جوهر التوقيع وملاكه، وأهمّ ما يميزه عن غيره من ألوان التعبير الأخرى"[1].

وقد بلغ الإيجاز في بعض التوقيعات إلى أن أصبح ردّاً مؤلّفاً من عددٍ محدودٍ من الكلمات كتوقيع الخليفة المهديّ في قصّة رجلٍ شكا إليه الفقر والحاجة، فكتب له في قصته: "أتاكَ الغَوْث"[2]، وقد يكون التوقيع بيتاً من الشعر، كتوقيع أبي مسلم الخراسانيّ في رسالةٍ لعبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد يستميله إليه، إذ خشي أبو مسلم من تأثير الكتاب في نفسه، فأحرقه قبل أن يقرأه، ثم كتب على جذاذةٍ منه:

مَحَــا السيفُ أسطــارَ البلاغــةِ وانتَحَــى عليكَ لُيُوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ [3]

ووقّع الأمين على كتابٍ ورد إليه:

عَشِـقتُ ظبيــاً رقيقــا في دارِ يَحْيى بنِ خاقا

(1) جمهرة توقيعات العرب، د. محمد محمود الدروبي، د. صلاح محمد جرّار، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربيّة المتحدة، العين، 2001م، ج1، ص7.

(2) جمهرة توقيعات العرب، ج1، ص69.

(3) التذكرة الحمدونيّة، ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت 562) هـ، تح: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، 1996م، ج2، ص33، وينسب البيت لأبي مسلم الخراسانيّ.

"وكتب تحته: أردتُ خَاقانَ، وخاقانُ مولىً لي إنْ شئتُ أُثْبِتُ نونَه، وإنْ شئتُ أُسْقطُه"[1].

وكذلك عُرف طاهر بن الحسين بتوقيعاته الموجزة، فقد وقّع في رسالة من السِّندي بن شاهك حين أرسل إليه يسأله الأمان: "عِشْ ما لم أرك"[2] ووقّع في قصّة قاتلٍ: "لا يؤخَّر قتلُه"[3] وفي قصّة ساعٍ: "لا يُلتفتُ إليه"[4] وفي قصّة مستجير: "أنا جاره"[5].

وقد بالغ بعض الخلفاء والوزراء في الإيجاز، فلجؤوا إلى تصحيف الكتب لنيل الغرض بأخفِّ مؤونةٍ وأقصر سبيلٍ، أو للتملح والتندر وإظهار البراعة، إذ وقّع بعضهم بحرفٍ واحدٍ أو نقطةٍ مفردةٍ كتوقيع الصاحب بن عبّاد الذي نظر في رقعةٍ مرسلةٍ إليه "فوقّع الصّاحب قبل (فَعَل) ألفاً، فصار (أَفْعَل)؛ وأمّا النقطة فإنه وضعها في رقعةٍ على لفظة (يَفْعل)، فنقط الياء من فوقها فصارت نوناً"[6].

وأُثِر عن المأمون أيضاً أنه وقّع بنقطة، وذلك عندما "تخلّف سابِقُ الحاجّ [7] عن وقته، ثم رفع قصةً إلى المأمون فوشمها بتوقيعه، فخرجتْ، فلم يَرَوا شيئاً، حتى عثروا بعد طول تأمّلٍ على نقطةٍ مضمومةٍ إلى نقطة باء (سابق)"[8] فأصبحت (سايق الحاج)، والياء هنا تخفيف من الهمز.

وقد لا يُصحِّف الموقِّع شيئاً من الرّقعة التي بين يديه، وإنما يطلب من صاحبها أن يصحِّف بنفسه، فقد كتب أحد الوزراء إلى الصّاحب بن عبّاد يتسخّط الزمان والإخوان:

وإذا صَفَا منْ زَمَانكَ واحدٌ فَهْو المُرَاد، وأينَ ذاكَ الواحِدُ؟

(1) جمهرة توقيعات العرب، ج1، ص86.

(2) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص226.

(3) نفسه، ج2، ص229.

(4) نفسه، ج2، ص229.

(5) نفسه، ج2، ص228.

(6) تحفة الوزراء، أبو منصور الثعالبي (ت 429) هـ، تح: د. حبيب علي الراوي و د. ابتسام مرهون الصفار، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م، ص144.

(7) هو أمير الحجّ، أو من يسبق الحجيج بالوصول إلى مكّة على اختلاف في القراءة، أو الذي يسبق قافلة الحجيج ليزفّ بشرى وصولهم، وعندما تأخر خلفهم وصلوا قبله فأصبح كمن يسوقهم.

(8) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزميّ (ت 583) ه، مؤسسة الأعلميّ، بيروت، 1412ه، ج4، ص46.

"فوقّع الصّاحب: وأين ذلك الواحد؟ صحِّفْ تعرفْ"، فلمّا قرأه الوزير طار سروراً، ومثل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحَّف (وأين) فجاء منه (وأنتَ)، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب"[1].

ولأنّ التوقيع فنٌّ من فنون الإيجاز؛ فقد كان مناسباً للتوقيع على أشياء بخلاف الكتب والرّقاع، كالصّخور والقصور والجدران وكلّ ما يمكن الكتابة عليه، فإذا كانت البديهة حاضرة -والبلاغة كذلك- هان الأمر على الموقّع أن يردّ على صاحب الشكاية في أيّ زمانٍ وعلى أيّ شيءٍ، إذ يروى أنّ المهديّ مرَّ وهو في طريقه إلى الحجّ" بمِيْلٍ [2] مكتوب عليه:

للهِ دَرُّكَ يا مَهْديُّ منْ رَجُلٍ لَوْلا اتخاذُكَ يعقوبَ بنَ داوودِ[3]

فقال لمن معه: اكتب تحته: "على رَغْم أنفِ الكاتبِ لهذا، وتَعِسَ جَدُّه!"[4].

فالبيت استفزّ الخليفة المهديّ الذي كان يُكْبر وزيره ابن داوود ويختصّه لنفسه ويفوّضه الجليل من الأمور، فلم يطق صبراً على الرّد، فكان التوقيع هو الوسيلة المثلى في الحالة التي كانوا عليها.

وقيل إنّ الرّشيد حجّ في أوّل خلافته، فدخل داراً في الطريق: "فإذا في صدرها بيتُ شعرٍ قد كُتب على حائط:

أَلَا يا أميرَ المؤمنين أَمَا تَرَى فَدَيتُكَ، هجْرانَ الحَبيبِ كَبيرا؟

فدعا بدواةٍ، وكتب تحته:

بَلَى والهَدَايا [5] المُشْعِرات [6] وما مَشَى بمكَّةَ مَرْفوعُ الأَظَلِّ[7] حَسِيرا"[8].

---

(1) شرح مقامات الحريريّ، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشيّ (ت 619) هـ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1992م، ج2، ص213،214.

(2) المِيْل: منارٌ حجريّ يُبنى لإرشاد المسافرين في الطريق.

(3) هو يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان، فارسي الأصل، كان وزيراً للمهدي ومن أشد المقربين إليه، توفي سنة 187 هـ.

(4) الاكتفاء في أخبار الخلفاء، أبو مروان عبد الملك بن الكردبُوس التوزري (من علماء القرن السادس الهجري)، تح: د. عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص166.

(5) الهدايا: ج هديّة، وهي البُدَنةُ تُهدى إلى الحرم.

(6) المُشعرات: يقولون أشعر الحاجّ البدنة، إذ جعل لها علامة تميّزها.

(7) الأظلّ: الذي في الظلّ، ومرفوع الأظلّ كناية عن المكانة الرّفيعة.

(8) تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين خضر الخضيري الأسيوطي السيوطيّ (ت 911) هـ، دار ابن حزم، بيروت، 2003م، ص231.

كما استُخدمت الأمثال في التوقيع كونها من المأثور البليغ المختصَر كتوقيع المهديّ في قصة جماعة اشتكوا واليه عليهم: "قد أنصف القارَة من راماها"[1] وتوقيع عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد في رقعةٍ رُفعت إليه جاء فيها "أنّ ابن أبي المظفّر يؤاجِر، فوقّع: من أشبه أباه فما ظلم"[2]. في حين أنه تمّ التوقيع بالشعر نحواً من مئةٍ وستين مرّةً، وأمّا عامّة التوقيعات فكانت عباراتٍ وجملاً من لدن أصحابها، تتفاوت في الطول والإيجاز، وفي الجودة والبيان والصياغة.

3. **البلاغة:** يحتاج التوقيع إلى مُكْنةٍ في اللغة وسَعَةٍ في البيان لا تتأتّى لمن هم حديثو عهدٍ بالكتابة، أو قليلو خبرةٍ في التأليف والبيان، فليس للإيجاز المذكور في الفقرة السابقة من معنىً إن لم يكن تامّاً في إيضاح المراد وتبيان المقصود، ولا يكون التوقيع توقيعاً بمجرّد الإيجاز والبيان بل يُحتاج معه إلى مسحةٍ من الجمال الفنيّ، والصورة الموحية، والإشارة المعبرة، وكلّ ذلك لا يتفق إلا لأرباب البلاغة الآخذين بأزمّتها، المتمسّكين بأعنّتها، الذين يديرون الكلام حيثما يريدون من غير مشقّة ولا عِيّ.

وإذا كانت البلاغة تدور في معناها اللغويّ حول إيصال الشيء إلى غايته، وأنّ: "الرجل البليغ هو من كان فصيحاً حَسَنَ الكلام، يَبلُغُ بعبارةِ لسانه غايةَ المعاني التي في نفسه ممّا يريد التعبير عنه"[3] إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أن يكون الموقّع قادراً على إيصال ما في نفسه إلى صاحب الرّقعة، متتبِّعاً سنن الفصاحة، سالكاً سبل الإيجاز والعبارة المؤثرة التي تترك في نفس متلقّيها شعوراً بلذّة الأدب، وتذوقاً لجمال صوره وإيحائه، واقتباسه وتضمينه وإحالاته.

ورغم هذه الشروط البلاغيّة المشدَّدة نوعاً ما، والتي تُخرِج عدداً كبيراً من الكتّاب من دائرة القادرين على التوقيع، فإنّ عدداً من خلفاء العبّاسيين وأمرائهم ووزرائهم وقادتهم كانوا من فرسان هذا الفنّ، فبرعوا فيه وأتقنوه وأحكموا بنيانه، حتى خرجت توقيعاتهم بحلّةٍ رائعةٍ من الجمال البلاغيّ الملائم لمقتضى حال المرسِل والمتلقّي في آنٍ معاً، فقد وقع الرّشيد إلى عامل المدينة المنوّرة يحضّه على الشدّة مع أناسٍ استعصوا عليه: "ضَعْ رجليك على رقاب أهل هذا البطن[4] فإنهم قد أطالوا ليلي بالسّهاد، ونفَوا عن عيني لذيذَ الرّقاد"[5].

---

(1) جمهرة توقيعات العرب، ج1، ص67. مثلٌ يُضرب في مقارعة الرجل صاحبه فيما يدعوه إليه، والقارَّة قبيلة من كنانة كانوا يُسمَّون (رماة الحَدَق) وقيل إنه التقى رجلٌ من العرب وآخر من القارة، فدعاه الرجل إلى المراماة، فقال القارّي: قد أنصفتني!

(2) نفسه، ج2، ص342. مثلٌ يُضرب لمن شابه أباه في طباعه الحسنة أو الرّديئة.

(3) البلاغة العربيّة، عبد الرحمن بن حسن حبنّكة الميدانيّ الدمشقيّ (ت 1425) ه، دار العلم بدمشق والدار الشاميّة ببيروت، 1996م، ج1، ص128.

(4) البطن: الوادي، أو الجماعة دون القبيلة تكون فرعاً منها.

(5) جمهرة توقيعات العرب، ج1، ص75.

وكان المأمون محبّاً لمن لا يخرج على الآداب السلطانية في حضرته، مكرماً لمن يتقنون هذا الفنّ من اللياقة واللباقة وحسن التصرّف، فأراد يوماً أن يكتب شيئاً "في وقتِ تفرّق الغلمان، فقال مرّاتٍ: يا غلام، الدّواة! وعنده يحيى بن أكثم وبجنبه الدّواة، فلم يبرح يحيى حتى أتى المأمون بالدّواة، فكان أوّل ما وقّع: يُعطى يحيى خمسين ألف درهمٍ لحُسن أدبه في تركه ما لا يعنيه، وهذه في ترْك خادم الملك ما لا يلزمه، واستغفاله بما هو من رَسْمه"[1] ووقّع في رقعةٍ رُفعت إليه، وكان فيها خبرٌ عن شغب الجند: "لا يُعطَون على الشّغب، ولا يُحوَجون إلى الطّلب"[2].

وصنّف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخل ويذمّ فيه الكرم، ثم أهداه إلى الحسن بن سهل يستميحه فيه، فوقّع الحسن على ظهر الكتاب: "قد مدحتَ ما ذمّ الله، وحسّنت ما قبّح الله، وما يقوم بفساد معناك صلاحُ لفظك، وقد جعلنا ثوابك قبول قولك، فما نعطيك شيئاً!"[3].

وتحتاج بعض التوقيعات من صاحب الرّقعة ذكاءَ قلبٍ وحضورَ ذهنٍ ليفهم تلميحاتها وإشاراتها، إذ يكتفي الموقّع بإيحاء العبارة ثقةً منه بفهم المتلقّي وحسن إدراكه، وتُعدّ هذه من أجمل التوقيعات وألطفها موقعاً في النفس، إذ تجعل المتلقّي يجول بفكره بحثاً عن المعنى المراد، ويستعرض محفوظه ومعرفته وما حواه رشده، فإذا ما أصاب المقصود من التوقيع وفهم ما أراد الموقِّع شعر بلذة الفهم وبرودة المعرفة على قلبه، ومن تلك التوقيعات ما وقّع به أبو جعفر المنصور لصاحب أرمينية: "إنّ لي في قفاك عيناً، وبين عينيك عيناً، ولهما أربع آذان"[4] يريد بالعين التي في القفا والعين التي بين عينيه جاسوسين، أو شخصين لكل منهما أذنان، فيكون المجموع أربع آذان.

وجلس طاهر بن الحسين يوماً للمظالم، فادّعى رجلٌ على آخر بسبب إجارة، فوقع طاهر: "يُرجَع إلى الفصل الثاني من كتاب كليلة ودمنة، فرُجِع إلى ذلك الفصل فوُجِد: أُجرةُ الأجير على من استأجرَه"[5].

ووقّع الرّشيد إلى عامله على مصر: "احذرْ أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف، فيأتيك مني ما لا قِبَل لك به، ومن الله أكثر"[6].

(1) نفسه، ج1، ص107.

(2) نقد النثر أو كتاب البيان، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغداديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1980م، ص102.

(3) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص316.

(4) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328) هـ، تح: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ج4، ص263.

(5) البصائر والذّخائر، أبو حيّان علي بن محمد بن العباس التوحيديّ (ت 400) ه، تح: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1408ه، 1988م، ج1، ص70.

(6) العقد الفريد، ج4، ص265.

ووقّع المهديّ في رقعةِ قومٍ اشتكوا إليه عمّاله: "لو كان عيسى عاملكم، قُدْناه إلى الحقّ كما يُقاد الجمل المخشوش [1]"[2].

فيوسف المذكور في قصّة الرّشيد هو يوسف النبيّ والمقصود بخزانته هو مصر لقوله: (اجعلني على خزائن الأرض) وأمّا اسم عيسى الذي ورد في توقيع المهديّ، فهو عيسى ابنه.

ووقّع المنصور إلى عامله في مصر، وقد ذكر نقصان نهر النيل: "طهّر عسكرَك من الفساد، يُعْطِك النيلُ القياد"[3].

وكتب واحدٌ من صحابة الصّاحب بن عبّاد يعتذر إليه عن ترك مجلسه خشية الثقل عليه، فوقّع الصّاحب: "متى يَثقل الجفن على العين!؟"[4].

ووقّع في قصّة رفعها إليه الضرّابون في دار الضرب: "في حديدٍ بارد [5]"[6].

ومثل هذه التوقيعات التي تحتاج إلى تفكّرٍ واطلاع قليلةٌ نسبيّاً في مجموع التوقيعات التي وصلت إلينا، ويبدو أنّ الموقّعين كانوا يخاطِبون بها الخاصّة من الناس كالوزراء والولاة وغيرهم، ويُستبعد توجيهها إلى عامة الناس لاحتمال سوء الفهم أو الوقوع في اللّبس.

4. **الإقناع**: وهو أن يأتي الموقّع في توقيعه بالحجّة الواضحة والمنطق المستقيم، ليحملَ صاحب الكتاب على الإذعان والتسليم، وليحوْلَ ببراعةِ قوله وسطوع بيانه دون معاودة صاحب الطّلب أو مراجعته له. فالتوقيع طريقة تصل المرسِل - الذي هو كاتب التوقيع - بالمرسَل إليه - المتمثل بصاحب الرقعة - عبر التوقيع المرسَل الذي يمثل قناة الاتصال بين الطرفين؛ ولكي يتحقق الإقناع لا بدّ من العناية بوسيلة التواصل تلك، فيحشد صاحب التوقيع كلَّ ما يمكنه من الوسائل البلاغية والإيقاعية والدلالية في جملةٍ قصيرةٍ نسبياً، ليحقِّق بها مراده من اقتناع المرسَل إليه بفحوى الرسالة أو التوقيع.

وقد يكون شرط الإقناع أصعب شروط التوقيع، إذ يحتاج إقناعُ الطالبِ أو صاحبِ الشكوى عادةً إلى كثيرٍ من التفسيرات والمسوّغات والجدل، وإلى بسطِ القول في زاويةٍ من الرّقعة أو في مساحةٍ فارغةٍ منها، كما أنّ عاملَ الوقت وكثرة التوقيعات يجعل الإقناع أعزّ من أن يكون في

(1) الجمل المخشوش: هو الجمل تُوضع في أنفه عروة أو نحوها يُقاد بها. وعيسى ولده.

(2) العقد الفريد، ج4، ص264.

(3) نفسه، ج4، ص263.

(4) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص379،378.

(5) تَضْرِبُ في حديدٍ بارد: مثلٌ يُضرب لمن طمع في غير مَطْمَعٍ.

(6) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص382.

متناول اليد، إلا إذا كان الموقّع ذا خبرةٍ وبراعةٍ في هذا المجال كجعفر البرمكيّ الذي كان يجلس للمظالم فيوقّع في مئات القصص التي تخرج آيةً في البلاغة يتهافت عليها الكتّاب فيشترون كلَّ قصّةٍ منها بدينار! [1].

ومن توقيعاته في قصّة رجلٍ رفع إليه طلباً فلم يجبه، فعاوده الرجل مرّة أخرى، فوقع جعفر: "تَرْكُ الجواب جواب"[2] ووقّع إلى صاحب شرطة المأمون في قصة متظلّمٍ: "اكفِني أمرَ هذا، وإلا كفيتُه أمرك"[3] وأكثرَ الناسُ شكاية عاملٍ من عمّاله فوقّع إليه: "يا هذا، قد كثر شاكوكَ وقلّ شاكروكَ، فإمّا اعتدلتَ وإمّا اعتزلتَ"[4].

وخير مثالٍ على ما في هذا الباب ما جرى من مراسلات بين علمين من أعلام التوقيعات، هما الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين، فقد وقّع الفضل في كتابٍ يتهدّد فيه طاهراً يقول فيه: "يا نصفَ إنسان! والله لئن أمرتُ لأنفذنْ، ولئن نفّذتُ لأبرمنْ، ولئن أبرمتُ لأبالغنْ، والسّلام. فأجابه طاهر: أنا أعزّك الله كالأمَة السّوداء، إن حُمل عليها دمدمتْ، وإن رُفّه عنها أشِرتْ، فإنْ عوقبتْ فباستحقاق، وإنْ غُفر لها فبإحسان"[5].

فالناظر في كلام الفضل يجد حزماً وعزماً ماضياً لم يترك فيه مجالاً للرّيبة في إنفاذ الأمر إنْ بقي طاهر على ما هو عليه، لكنّ جواب طاهر بن الحسين كان غاية في الخضوع والانقياد، بحيث استلّ كلّ سخيمةٍ من صدر ابن سهل، فجعل نفسه كالأمة السوداء، إن كُلّفت بأمرٍ تمتمت وتذمّرت، وإن تُركت بلا عملٍ بَطرتْ وأفسدتْ، ثم يكل إليه أمره فإمّا عقوبةُ يستحقّها أو عفوٌ من صاحب الفضل ومِنَّةٌ منه.

ووقّع الفضل في رقعةِ خائفٍ: "ليس عليك بأس ما لم يكن منك بأس"[6] ووقّع إلى هرثمة بن أعين وقد أرسل إليه يستشيره برأي: "لا يُحَلُّ ما عَقَدْتَ"[7].

ونمى إلى المعتضد بالله أنّ بعض عماله يخالفون الآداب الملكيّة، فينزعون خفافهم ويضعون العمائم عن رؤوسهم ويلعبون الشّطرنج والنَّرْد بعد ذهاب موكب الخليفة، فوقّع: "يُستَصفَعون وما لهم من صافحٍ"[8] فضُرب كلّ واحدٍ منهم عدّة مقارع.

(1) انظر: مقدّمة ابن خلدون، ج1، ص430.
(2) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص299.
(3) نفسه، ج2، ص291.
(4) نفسه، ج2، ص290.
(5) جمهرة توقيعات العرب، ج2، ص312.
(6) نفسه، ج2، ص309.
(7) نفسه، ج2، ص310.
(8) نفسه، ج1، ص125.

وتعدّ السّلطة السياسيّة طرفاً في معادلة الإقناع التي قد لا تصل إلى درجة الاقتناع لدى صاحب القصّة، لكنّ هيبة ذوي السلطان قد تمنعه من المعاودة أو المراجعة، كما أنّ أصحاب السّلطة إذا أنفذوا أمراً يستصعبون الرّجوع عنه أو القول بخلافه، حتى وإن كان القول الأوّل مجانباً للحقّ والعدل، فتكون المراجعة عندئذٍ غير ذات جدوى، ولربما أظهرتِ المُراجِعَ مفتقراً للباقة والكياسة مع ذوي الشأن من الحكّام والوزراء والأمراء.

ولا تخلو بعض التوقيعات من الطرافة وخفّة الظلّ، فيصدر منها ما يدعو للغرابة أو الابتسام، فمن ذلك أنه كان للخليفة المهديّ ابنٌ يُدعى يعقوب، وكان محمَّقاً فإذا اشتهى شيئاً جعله في حوزته وطالب عمّال الخليفة بثمنه، فيكتبون إلى الخازن بذلك، فيوقّع في كتبهم: "ليس هذا له، وإنما اشتهاه!"[1].

ورفع صاحب الخبر إلى جعفر البرمكيّ "أنّ أبا نُوَاس قال:

لقدْ غَـرَّني مِنْ جَعْفَرٍ حُسْـنُ بـابـهِ ولـم أَدْرِ أنَّ اللـؤمَ حَشْـوُ إهَـابـهِ

ولسـتُ وإنْ أطنَبتُ فـي وَصْفِ جَعْفـرٍ بـأوَّلِ إنسـانٍ خَـرَى فـي ثيـابـهِ

فوقّع جعفر في رقعته: "يُدفع إليه عشرة آلافِ درهم يَغْسل بها ثيابه"[2].

ومن لطائف التوقيعات أن الوزير أبا محمد المهلبيّ كان قبل اتصاله بمعزّ الدّولة البويهي شديد الفاقة رقيق الحال، فبينا هو على سفرٍ مع أحد أصحابه إذ اشتهى اللحم فلم يقدر على ثمنه، فقال:

أَلَا مَـوتٌ يُبـاعُ فـأشتـريـهِ فهـذا العيشُ مـا لا خيرَ فيـهِ

أَلَا مَـوتٌ لـذيـذُ الطّعـمِ يـأتـي يخلِّصُني من العيشِ الكَرِيـهِ

إذا أبْصَـرتُ قَبْـراً مـن بعيـدٍ وَدِدْتُ لـو أننـي فيمـا يَليـهِ

فرقّ له صاحبه واشترى له لحماً بدرهمٍ وأطعمه إياه، ثم ينقلب الزّمان وتدور الأيام بالمهلبيّ فيصبح وزيراً لآل بُوَيه، وضاق الحال بصاحبه فقصده وكتب إليه:

أَلَا قُـلْ للوزيـرِ فَـدَتْه نفسي مَـقَـالَ مذكِّـرٍ مـا قد نَسِيهِ

أَتَذْكُرُ إذْ تقـولُ لِضِيـقِ عَيْشٍ أَلَا مَـوتٌ يُبـاعُ فـأشتريـهِ؟

(1) نفسه، ج3، ص492.

(2) نثر الدرّ في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي (ت 421) هـ، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، ص91.

فلمّا نظر المهلبيّ في الكتاب تذكّر الحال التي كان عليها، وهزّته أريحية الكرم فأمر له بسبعمئة درهم ووقّع في رقعةِ صاحبه: "مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة" ثم دعاه إلى مجلسه وخلع عليه وقلّده عملاً يُرزق منه [1].

ثالثاً- المظاهر السلطانية في التوقيعات:

يكاد يكون التوقيع فناً ملكياً خالصاً؛ إذ ارتبط منذ نشأته بالملوك والقادة والسلاطين، وقد كان في البداية علامةً بارزةً لهم، فلم تكن تصدر التوقيعات في بدايتها إلا رسمية، ولم تتحرر من شكلها السلطاني إلى أغراض أخرى مختلفة إلا في وقتٍ متأخرٍ نسبياً، كما أنها وليدةُ حاجةٍ ملكيةٍ أُشير إليها في مستهلّ هذا البحث، وفي رفعة التوقيع وخطورته يقول القلقشندي: "التوقيع أمرٌ جليلٌ، ومنصبٌ حفيلٌ، إذ هو سبيلُ الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزْل إلى غير ذلك من الأمور المهمّات والمتعلَّقات السنية، واعلم أنّ التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء فكان الخليفة هو الذي يوقّع في الأمور السلطانية وفصل المظالم وغيرهما"[2].

وقد ظلّ التوقيع يكتسب تلك الهالة السلطانية حتى بعد أن اعتمد كثيرٌ من الخلفاء والأمراء والقادة على كتّاب ينوبون عنهم في ذلك الأمر، أو يشاركونهم فيه، فـ "ديوان التوقيعات" من أهم الدواوين الملحقة بدار الخلافة، ومن يتولى شؤون التوقيع فيها يجب أن يخضع لشروطٍ عزيزةٍ ومهمّاتٍ صعبةٍ؛ إذ هو ينطق بلسان السلطة ويتكلم بإرادتها، ويتسنم مكانها في التدبير والتبليغ، إضافة إلى تحليه بالكياسة والأدب، وأن يكون كفؤاً لمجالسة الملوك متقناً لآدابهم ومدركاً لأخلاقهم ومراسم عاداتهم، يقول ابن خلدون في كاتب التوقيعات: "إنّ صاحب هذه الخطة لا بدّ أن يُتَخَيَّر من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلوّ وعارضة البلاغة، فإنه معرَّض للنظر في أصول العلم لما يعرِض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في التَّرسِيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"[3].

وقد صنّف ابن قيّم الجوزية كتاباً وسمه بـ "أعلام الموقّعين عن ربِّ العالمين" صرّح فيه بأن العلماء وأهل الإفتاء من الناس هم بمنزلة من يوقّع الأمر بين يدي ملك الملوك، وأن أول من وقّع عن الله عزّ وجلّ هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أطنب في صفات من يوقّع عن الله وعن الرسول فقال: "وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلّ الذي لا يُنكَر فضله، ولا يُجهَل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن ربّ الأرض والسماوات؟"[4].

(1) انظر: ثمرّات الأوراق في المحاضرات (مطبوع بهامش المستطرف في كلّ فنّ مستظرف للأبشيهيّ)، ابن حجّة تقيّ الدّين أبو بكر بن عليّ الحمويّ (ت 837) هـ، مكتبة الجمهوريّة العربيّة، مصر، ج1، ص80،81.

(2) صبح الأعشى، ج1، ص110،111.

(3) مقدمة ابن خلدون، ج1، ص430.

(4) أعلام الموقّعين عن ربِّ العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (715)هـ،

وبما أن التوقيعات وشيجة الصلة بالدول وملوكها وقيامها وقياداتها، فهي لا تلقي الضوء على المرحلة التي كُتبت فيها فحسب، وإنما تعكس شخصية كاتبها أو مصدرها بدرجة معقولة -ومن هنا تأتي أهميتها- فقد تعكس التوقيعات أصدق الصور عن أصحابها من ذوي السيادة والشأن الرفيع، لأن أكثرها يتسم بالانفعال الصادق والبعد عن المداورة التي تتيحها النصوص الطويلة من الرسائل والمكاتبات والكتب، فـ "شخصية الخليفة صاحب التوقيعات تبدو واضحةً جليةً خلال توقيعاته، وفي الأفكار التي تشتمل عليها، تدل على طريقته في الحكم، وعلى أسلوبه في الحياة، وعلى دوره في التاريخ"(1) فلو نظرنا مثلًا إلى توقيعات أبي العباس السفاح، فإننا نجد فيها ببساطة صورة الخليفة الذي يريد أن يقيم دولةً جديدةً وفق نظرةٍ دينيةٍ اعتماداً على حجّةِ الدين وسطوة القوة وسلاسة السياسة؛ ولذلك اتسمت غالب توقيعاته التي وصلت إلينا بالصبغة الدينية، فقد وقع ينتقد جماعةً من الأنبار اشتكوا مصادرته لمنازلهم وضمها للبناء الذي أمر به: "هذا بناءٌ أُسِّسَ على غير تقوى"(2).

ووقع إلى عاملٍ تظلّم منه: "وما كنتُ متخذ المضلين عَضُداً"(3).

ووقع إلى ساعٍ سعى إليه بنميمة: "تقرّبتَ إلينا بما باعدكَ عن الله، ولا ثوابَ لمن خالفَ الله"(4).

ووقع إلى جماعةٍ تبرَّموا بقلة أرزاقهم: "من صبرَ في الشدة، شورك في النعمة"(5).

فالسفاح في هذه التوقيعات يصرّ على المظهر الديني للخليفة، ما يعكس رغبته الملحة بالظهور خليفةً يليق بنسبه من النبي صلى الله عليه وسلم، ولا سيما إذا عرفنا أنه لقّب نفسه في بداية خلافته بـ "المهديّ" قبل أن يلقبه الخليفة المنصور بالسفاح لينتزع منه لقب المهدوية ويمنحه لابنه وولي عهده محمد(6)، كما أن التوقيع الأخير يشير إلى الشدّة التي لقيها قادة الدولة العباسية أول الأمر، فهم يصارعون لبناء دولتهم على أنقاض دولة ما زالت تقاوم، ويلقَون العنتَ من أبناء عمومتهم العلويين، ويجاهدون لتصدير صورةٍ دينيةٍ يدحضون بها صورة الدولة الأموية، وهم مع ذلك يرتكبون الأخطاء؛ لذا فإنّ من عادة القادة في هذه المرحلة إطلاق الوعود والتعلل بالأماني، ليصبر الرعية على ما يعانونه من عسفٍ وظلمٍ، ويدعونهم إلى الصبر ويعدونهم المشاركة في الغنيمة بعد الانتصار وتثبيت أركان الدولة.

تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، 1423 هـ، ج2، ص17.

(1) فنّ التوقيعات في الأدب العربي، د. عبد الكريم حسين علي رعدان، مجلة الدراسات الاجتماعية، ع34، يونيو، 2012م، جامعة العلوم والتكنولوجيا، عمّان، ص110.

(2) جمهرة توقيعات العرب، ج4، ص427.

(3) نفسه، ج4، ص426. الكهف: 51.

(4) نفسه، ج4، ص427.

(5) نفسه، ج4، ص430.

(6) الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الأول، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس، د. عبد العزيز الدوري، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1981م، ص130.

أما أبو جعفر المنصور فقد كان خليفة حازماً، وجد نفسه مسؤولاً عن تأسيس دولة وبناء أركانٍ أيقن أنه لا بدّ من ترسيخها بقوة، فاتجه إلى الحسم في القول، والشدة في الأمر كي لا يطمع طامع أو يتراخى عامل، ولا ينام متهاون أو يتساهل متساهل، فعندما شكا إليه رجلٌ أحد عماله، وقع إلى ذلك العامل: "اكفني أمره، وإلا كفيته أمرك"[1] يريد أنه ليس لديَّ سَعَةٌ من الوقت للنظر في مثل تلك المظالم، فإنْ لم تسوِّ ظلامة الرجل فإنك ستُعزَل.

ولأن المنصور كان يدرك تبعات المرحلة التي ينبغي عليه النهوض بها، فلم يشكّ في حاجته الماسة إلى الأموال ودورها في تشييد الدولة وتشكيل بنيانها، الأمر الذي جعل منه رجلاً شحيحاً لا يحب إنفاق المال فيما سوى بناء دعائم تلك الدولة، لذا فإنه لم يلتفت كثيراً إلى الشعراء والممدِّحين، فإذا أنفق فإنما ينفق الشيء اليسير بحرصٍ شديدٍ وبعد ترددٍ كثيرٍ حتى لُقِّب بـ"أبي الدَّوانيق"، ولقد أُثر عنه توقيعُه لرجلٍ بليغٍ استماحه: "إنّ البلاغة والغنى إذا اجتمعا في رجلٍ أطغياه، وقد رُزقتَ إحداهما، فاكتفِ بها، واقتصر عليها"[2] فبسببٍ من كره الخليفة للإنفاق تعلل بخشيته من طغيان الرجل البليغ، وهي حجّةٌ مكشوفةٌ وحيلةٌ مبتذلةٌ لم يربأ الخليفة بنفسه عنها لترشيده في مصارف المال ولتمكُّن خليقة البخل منه.

أما توقيعات الرشيد فتُظهِر سِمَتين أساسيتين من سيرته، وهما الحزم والعزم، والوجل من الله تعالى؛ فمن حزمه وعزمه أنه كان حريصاً على مبادرة الفتن فيقمعها قبل أن تندُر برؤوسها فتقلقه، ومن ذلك أنه وقّع لعامله على خراسان: "كل من رفع رأسه فأزِلْه عن بدنه" ومن حزمه أيضاً أنه لم يحابِ المقربين منه إذ وقع في قصة لمتظلم من حميد الطوسي[3]:" يا أبا غانم، لا تغترَّ بموضعك من إمامك، فإنك وأخسّ عبيده في الحق سيّان" وهذا يجسّد مقولة "المُلك عقيم" أي أن المَلك قد لا يتورع عن الانقلاب على أقرب مقربيه في سبيل الحفاظ على عرشه وديمومة سلطانه.

ومن المعروف عن الرشيد تقواه وورعه وتأثره بالمواعظ الدينية، وقد تجلّت هذه الصورة في بعض توقيعاته، إذ وقع في كتاب خزيمة بن خازم[4] وقد أخبره أنه وضع السيف بأرمينية عند فتحها: "لا أمَّ لك! تأخذ بالذنب من لا ذنب له؟"[5].

(1) جمهرة توقيعات العرب، ج4، ص430.

(2) نفسه، ج4، ص451.

(3) هو حُميد بن عبد الحميد الطوسي، أحد أشهر قوّاد الرشيد والأمين والمأمون، توفي سنة 210هـ.

(4) هو خزيمة بن خازم التميميّ، خليفة أبي مسلم الخراساني على الجيوش العباسية، وكان من بيت عظيم القدر من بيوتات نقباء العباسيين، وليَ للرشيد والأمين والمأمون، أصيب آخر عمره بالعمى، توفي ببغداد سنة 203 هـ.

(5) العقد الفريد، ج4، ص265.

ووقع في قصة محبوس: "من لجأ إلى الله نجا"[1].

ووقع إلى السِّندي بن شاهِك: "خَفِ الله وإمامك، فهما نجاتك"[2].

وفي توقيعه لابن شاهك تتجلى قناعة الخلفاء المطلقة بأن سلطتهم منَّةٌ إلهيةٌ وأن طاعتهم بابٌ من أبواب الجنة، وهي نظريةٌ راجت بين علماء المسلمين بعد العهد الراشدي خوفاً من انتشار الفتن، وتمسّك بها الخلفاء المتتابعون من بني أمية وبني العباس وعضوا عليها بالنواجذ حتى أصبحت من البديهيات الدينية والسياسية معاً، واستمرت زمناً طويلاً قبل أن يخفت بريقها بعد انهيار الخلافة الإسلامية في العصور المتأخرة.

فإذا ما انتقلنا إلى المأمون رأينا توقيعاتٍ حليمةً تتسم بالأناة والروية، وتتسع لتشمل العفو عن المذنب وإقالة العثرة، وسرعة النجدة، والحرص على إظهار العدالة، وقد كان المأمون يقول في كلامه: "أنا والله ألدُّ العفوَ حتى أخاف أن لا أؤجر عليه، ولو علمَ الناسُ مقدار محبّتي للعفو لتقرّبوا إليّ بالذنوب"[3] فلا غرابة إذا وقع لعمه إبراهيم بن المهدي عندما جاءه نادماً بعد خروجه عليه: "القدرة تُذهب الحفيظة، والندم جزءٌ من التوبة، وبينهما عفوُ الله"[4].

ووقع في صحيفة شكا فيها أهل السواد اجتياحَ الجراد لمحاصيلهم: "نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد، فليحطَّ عنهم نصف الخَراج"[5].

ووقع في صحيفة متظلم من عمرو بن مسعدة: "يا عمرو! عمّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها"[6].

وفي المقابل نجد قسوة عبد الله بن طاهر قائد جيش المأمون ولا مبالاته بمقتل أحد قادته على يديه أثناء تأديبه، فلما رُفع إليه أنّ الناس يرمونه بقتل الرجل وقع توقيعاً بارداً يقول فيه: "إنما أدَّبناه فوافق الأدبُ الأجلَ"[7] ولا غرابة أن يكون عبد الله بن طاهر قائداً لخليفةٍ حليمٍ مثل المأمون، فهذه الثنائية بين الرحمة السياسية والقسوة العسكرية من أشهر أنماط الحكم لدى العرب وغيرهم من

(1) العقد الفريد، ج4، ص265.

(2) نفسه، ج4، ص266.

(3) تاريخ الخلفاء، ص256.

(4) خاصّ الخاصّ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت 429) هـ، تح: مأمون بن محيي الدين الجنّان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص132.

(5) نفسه، ص132.

(6) العقد الفريد، ص266.

(7) جمهرة توقيعات العرب، ج4، ص454.

الأمم، فمما لا شك فيه أن الدولة تحتاج إلى الشديد القاسي بقدر حاجتها إلى الحليم المتأني، وتُشاد بالحزم والشدة وتدوم بالحلم والعدل واللين، وهذا بابٌ واسعٌ يكاد الخوض فيه يخرج عن خطة ما نحن فيه.

ومن المظاهر السلطانية في التوقيعات إشارة الملك أو الخليفة إلى نفسه بإشارات التعظيم والتفخيم باستعمال ضمير الجماعة "نا" كتوقيع السفّاح لمروان بن محمد وقد سأله حفظَ حُرَمِه: "الحقُّ لنا في دَمِكَ، وعلينا في حُرَمِكَ"(1).

أو "نحن" كتوقيع يحيى بن خالد البرمكي في أمر فتىً امتُدح له: "هذا فتىً له حُرْمة الأمل، فامتحنْه بالعمل، فإنْ كان كافياً فالسلطانُ له دوننا، وإنْ لم يكن كافياً فنحن له دون السلطان"(2).

أو "أمير المؤمنين" كتوقيع الرشيد لرجلٍ أخبره بسرٍّ من أسرارِ الطالبيين: "قد أثابكَ أميرُ المؤمنين مئة ألفٍ بحُسْن نيّتكَ"(3).

أو "خليفة الله" كتوقيع المأمون في كتابٍ وَرَدَه من أمير المدينة يخبره بردِّ "فَدَك" إلى وَلَد فاطمة رضي الله عنها: "قد أرضيتَ خليفةَ اللهِ في فَدَك، كما أرضى اللهُ رسولَه فيها"(4).

أو بالبناء للمجهول إمّا دلالةً على عظمة الموقِّع ومعرفته بداهةً لحضوره في الذهن كتوقيع طاهر بن الحسين في قصة مستأمِنٍ: "يؤمَّنُ سربُه"(5) ولشاعرٍ: "يُعجَّل ثوابُه"(6)؛ أو إشارة إلى تحقير الفاعل واستعلاء الموقِّع عن ذكره كتوقيع طاهرٍ المذكور آنفاً في رقعة قاتلٍ: "لا يُؤخَّر قتلُه"(7) ولساعٍ: "لا يُلتفَتُ إليه"(8)...

ومن المظاهر السلطانية أيضاً كثرة الأمر والنهي وطغيان أساليب التعنيف فيها، مع إيجاز القول واختصار العبارة إلى أقل قدرٍ ممكنٍ من الكلمات، وذلك يعود إلى علوّ شأن الموقِّع وسموّ سلطانه، إذ لا حاجة للملوك في مكاتباتهم مع عمالهم أو إصدار أوامرهم إلى العامة بتطويل الكلام وترديد الأوامر، فما هي إلا كلمات قليلةٌ وكفى، تقول إحدى الناقدات: "يكثر في عبارات التوقيع

(1) جمهرة توقيعات العرب، ج1، ص56.
(2) نفسه، ج2، ص286.
(3) نفسه، ج1، ص77.
(4) نفسه، ج1، ص103.
(5) نفسه، ج2، ص229.
(6) نفسه، ج2، ص229.
(7) نفسه، ج2، ص229.
(8) نفسه، ج2، ص229.

أساليب النهي والأمر وهذا يعود إلى طبيعة هذا الفن وكونه صادراً من فكر الخلفاء والمسؤولين، فحَفِل بالتوبيخ واللوم وحَسْم الموقف في عبارةٍ واحدةٍ"[1] وقد مرّ بنا ما يمثل لذلك اللوم والتعنيف من جهة الخلفاء وأولي الأمر والسلطان.

ولربما كان للثراء المادي والرفاهية الباذخة أثرٌ ظاهرٌ في تشكيل التوقيع وزخرفته وتصنيعه بالمحسنات اللفظية في كثيرٍ من الأحيان، إذ يرى كثير من النقاد أن الأدب مرآةٌ ينعكس على صفحتها كلُّ ما يمتُّ لواقع الأديب الاجتماعي وما يعتمل داخل نفسه ليبثه في تشكيلاتٍ وصيغٍ أدبيةٍ، فإنْ كان حال أصحاب التوقيعات على ما هو معروفٌ من البذخ والبهرجة والزخرفة والسلطان، فقد حُقَّ للتوقيع أن يتشح بما بدا عليه من الأناقة والزخرف وجمال الإيقاع، يقول الدكتور شوقي ضيف: "كان جعفر يبالغ في تنميق عباراته، وهو تنميق كان يستمده من حياته التي بُنيت بناء من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتخَذ في عصره مثالاً للتصنيع والزخرف في ثيابه، فكان طبيعياً أن يسقط ذلك إلى أدبه وبيانه، ولعلّ أهم ما يُلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع في كتبه وتوقيعاته"[2] ومن أمثلة الصنعة السجع والتحسينات اللفظية والمعنوية في السجع توقيع الرشيد إلى صاحب السند وقد ظهرت العصبية فيمن عنده: "من أظهر العصبية فعاجله بالمنيّة"[3].

ووقع المأمون إلى الرستمي[4] وقد تظلم منه غريمٌ له: "ليس من المروءة أن تكون أَوَانيكَ من الذهب والفضة وجارُك طاوٍ وغريمُك عاوٍ"[5].

ووقع طاهر بن الحسين في رقعة مستبطئ: "ترك الجواب جواب"[6]. أي تَرْك إجابتي عن رُقعتك، جوابٌ على ما جاء فيها، أو رفضٌ لما بها من التشكّي.

ووقع حفيده محمد[7] إلى الكتّاب وقد اشتكوا قلةَ الكواغد إبان فتنة المعتز: "دققوا الأقلام، وأوجزوا الكلام، فإن القراطيس لا تُرام، والسلام"[8]

---

(1) فنّ التوقيعات في النثر العربي: تأصيل وتحليل، د. سامية حمدي صديق، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع 36، يناير، 2005م، ص141.

(2) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، ط10، دار المعارف، القاهرة، ص196.

(3) خاصّ الخاصّ، ص131.

(4) هو الحسين بن عمر الرُّسْتميّ أحد أكابر قوّاد المأمون.

(5) العقد الفريد، ج4، ص266.

(6) خاصّ الخاصّ، ص133.

(7) هو محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعيّ، أمير من الشجعان، ولي نيابة بغداد أيام المتوكل، وله أخبار كثيرة في فتنة المعتز بالله، توفي ببغداد سنة 253 هـ.

(8) خاصّ الخاصّ، ص134.

والمتصفح لكتاب "جمهرة توقيعات العرب" يجد طائفةً واسعةً من مثل تلك التوقيعات التي تتنوع في اعتمادها على الصنعة والزخرفة، مع أنها بطبيعة الحال تختلف من عصرٍ لعصرٍ ومن خليفةٍ لآخر، وتتباين تبعاً للكاتب والظرف والمقام الذي كُتبت فيه، وهذا شأنٌ معلومٌ في جميع أنواع الأدب عند كل مطلعٍ حصيفٍ.

وعلى هذا المنوال كانت تجري توقيعات البلغاء والفصحاء من ذوي المُلك وأكابر القوم في عباراتٍ شديدةِ التأنّق، قليلةِ الألفاظ كثيفةِ المعاني، ولربّما سدّ التوقيعُ مسدّ خطابٍ طويلٍ بلا طائل أو خطبةٍ مملّةٍ بلا جدوى، ولربّما أدّى الغرضَ نفسه مع احتفاظه بميزاته المعروفة من الكتابة والإيجاز والبلاغة والإقناع، وقدرته على حفظ أوقات الملوك وحقّ الرعيّة، الأمر الذي جعله من أرقى آداب الملوك وذروتها في مراسلاتهم وما أُثِر عنهم من الأقوال والحكم المنثورة في صّحائف كتبهم وفي رسائلهم وطرائف أحكامهم.

وفي المحصلة، يمكن إجمال نتائج هذا البحث بما يأتي:

1. التوقيع فنٌّ أدبيٌّ راقٍ ارتبط بالمكاتبات السلطانية وبذوي المناصب والأكابر من الدولة العباسية في عهدها الأول، وهو على صلةٍ بمنشأه العربيّ وتطورٌ لاحقٌ لما سلفَ من التوقيعات السابقة على ذلك العصر.

2. للتوقيع عدّة شروطٍ منها: الإيجاز والبلاغة والإقناع، وقد أُضيفَ في هذا البحث شرطٌ آخر وهو "الكتابة والتضمين" بمعنى أنه ينبغي للتوقيع أن يكون مكتوباً، وأن يكون متَضمَّناً في كتاب صاحب الرقعة أو الرسالة.

3. تتراءى من خلف التوقيع ظلالُ العصر الذي كُتب فيه والظروفُ السياسية الملتبسة بذلك العصر، كما تنعكس شخصيةُ الموقِّع ونفسيته على التوقيع بدرجةٍ لافتةٍ، فالقارئ يرى في التوقيع حرصَ المنصور وحزمَ الرشيد وأناةَ المأمون وغيرهم من الخلفاء والأمراء والقادة.

4. كانت المظاهر السلطانية في التوقيع بارزةً وواضحةً، ويظهر ذلك في أسلوب الموقِّع بوصفه أحد أكابر الدولة وقادتها، فنرى استخدام "نا" و"نحن" ولقب الخليفة، واستعمال البناء للمجهول، ليضفي الموقِّع على نفسه صفات النُبل والعظمة ورفيع الخصال.

5. ومن المظاهر السلطانية في التوقيعات أيضاً كثرة الأمر والنهي والوعد والوعيد، مع شدّة الإيجاز في هذا النوع من التوقيعات دلالةً على حسم الموقف والقطع في الحكم وعدم المراجعة فيه.

6. انعكست بيئة الموقِّع وثرائه ورفاهيته الملكية على بعض التوقيعات، الأمر الذي جعلها تنحو باتجاه الصنعة والزخرفة اللفظية، ورغم كثرة مثل تلك التوقيعات فإنها لم تطغَ على الأسلوب العام للتوقيعات المتمثل بالإرسال الموجَز البليغ.

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى الاضطراب في نسبة التوقيعات إلى موقّعيها في بعض الأحيان، على أنّ المحقِّق في التوقيعات قد يتمكن من ردّها إلى أصحابها بعد أن يتملّى في أساليب كل خليفةٍ أو كل وزيرٍ أو صاحب شأنٍ اعتماداً على كلامه وبلاغته، أو ظروفه وأحوال دولته، وعلى أخباره وما أُثرَ عنه من أو سجايا خلائق مميِّزة.

قائمة المصادر والمراجع:

الأبِّيّ، أبـو سـعد منصـور بـن الحسـين (د.ت.). نـثر الـدرّ في المحـاضرات (تحقيـق خالـد عبـد الغـني محفـوظ، ج7). دار الكتـب العلميـة.

الأندلسيّ ، أحمد بن محمد (د.ت.). العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان، ج4). المكتبة التجارية الكبرى.

البَطَلْيَـوسيّ، أبـو محمـد عبـد الله بن محمـد بـن السـيّد (1996). الاقتضـاب في شرح أدب الكتّـاب (تحقيق مصطفى السّـقا و د. حامـد عبـد الحميـد). مطبعة دار الكتـب المصرية.

التوحيديّ، أبو حيّان علي بن محمد بن العباس (1988). البصائر والذّخائر (تحقيق د. وداد القاضي). دار صادر.

التَّـوزَريّ، أبـو مـروان عبـد الملـك بـن الكردبُـوس (د.ت.). الاكتفـاء في أخبـار الخلفـاء (تحقيـق د. عبـد القـادر بُوباية، ج2). دار الكتـب العلميـة.

الثعالـبيّ، أبـو منصـور عبـد الملـك بـن محمـد بـن إسـماعيل (2006). تحفة الـوزراء (تحقيـق حبيب علي الـراوي و د. ابتسـام مرهـون الصفار). الـدار العربية للموسـوعات.

الثعالـبيّ، أبـو منصـور عبـد الملـك بـن محمد بن إسـماعيل (1994). خـاصّ الخاصّ (تحقيـق مأمون بن محـيي الدين الجنّـان). دار الكتب العلمية.

حَبَنَّكة، عبد الرحمن بن حسن الميدانيّ الدمشقيّ (1996). البلاغة العربيّة. دار العلم.

ابـن حِجَّـة الحمـويّ، تقـيّ الدّين أبو بكر بـن عليّ (د.ت.). ثمـرّات الأوراق في المحاضرات (مطبوع بهامش المسـتطرف في كلّ فنّ مسـتظرف للأبشـيهيّ). مكتبة الجمهوريّة العربيّة.

ابـن حمـدون، محمـد بـن الحسـن بـن محمـد بـن عـلي (1996). التذكـرة الحمدونيّـة (تحقيق د. إحسـان عبـاس وبكر عبـاس، ج2). دار صـادر.

ابـن خلـدون، ولي الديـن عبـد الرحمـن الإشـبيلي (2004). مقدمـة ابـن خلـدون (تحقيـق عبـد الله محمـد الدرويش). دار يعرب.

الدخيِّـل، حمـد بـن نـاصر (1422). فـنّ التوقيعـات الأدبيّة في العصر الإسـلاميّ والأمـويّ والعباسيّ. مجلـة جامعة أمّ القرى، *13*(22).

الدروبيّ، محمد محمود و جرّار، صلاح محمد (2001). جمهرة توقيعات العرب. مركز زايد للتراث والتاريخ.

الـدوريّ، عبـد العزيـز (1981). الفكرة المَهديّـة بـين الدعـوة العباسـية والعـصر العبـاسي الأوّل: دراسـات عربيـة وإسـلامية مهـداة إلى إحسـان عبـاس. الجامعـة الأمريكيـة.

رَعْدان، عبد الكريم حسين علي (2012). فنّ التوقيعات في الأدب العربي. مجلة الدراسات الاجتماعية، جامعة العلوم والتكنولوجيا، (34).

الزمخشريّ، محمود بن عمر الخوارزميّ (1412). ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (ج4). مؤسسة الأعلميّ.

السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن (2003). تاريخ الخلفاء. دار ابن حزم.

الشريشيّ، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسيّ (1992). شرح مقامات الحريريّ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2). المكتبة العصرية.

صدِّيق، سامية حمدي (2005). فنّ التوقيعات في النثر العربيّ: تأصيل وتحليل. مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، (36).

ضيف، شوقي (د.ت.). الفنّ ومذاهبه في النثر العربي (ط10). دار المعارف.

عبد الله، يسري عبد الغني (2005). التوقيعات فنّ أدبيّ نسيناه. مجلة الموقف الأدبيّ، اتحاد الكتّاب العرب، (413).

قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغداديّ (1980). نقد النثر أو كتاب البيان. دار الكتب العلمية.

القلقشنديّ، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد (1922). صبح الأعشى في صناعة الإنشا (ج11). دار الكتب المصرية.

ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (1423). أعلام المُوَقِّعين عن ربِّ العالمين (تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ج2). دار ابن الجوزيّ.

ابن منظور، محمد بن مكرم (1414). لسان العرب (ج8، ط3). دار صادر.

الهَرويّ، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهريّ (2001). تهذيب اللغة (تحقيق محمد عوض مرعب، ج3). دار إحياء التراث العربي.

الهزايمة، خالد محمد و عبيدات، عدنان محمود (2007). التوقيعات حتى نهاية عصر بني أميّة. مجلة التراث العربي، (106).

الترجمة الصوتية لمصادر ومراجع اللغة العربية: Romanized Arabic References:

al-ʾābbiyy ʾabū saʿdi manṣūri bn alḥissayni d t). nathru al-ddurri fī almuḥāḍarāti taḥqīqa khālida ʿabdi alghaniyyi maḥfūẓun j dāra alkutubi alʿilmiyyati

alʾandalusiyyu ʾaḥamida bn muḥammadu d t). alʿaqdu alfarīdu taḥqīqa muḥammada saʿīda alʿuryāni j almaktabata al-ttijāriyyata alkubrā

albaṭalyawsiyyu ʾabū muḥammadu ʿabdi al-lhi bn muḥammadu bn al-ssayyidi 1996). aliqtiḍāba fī sharḥi ʾadabi alkitābi taḥqīqa muṣṭafā al-sqā wa d ḥāmidu ʿabdi alḥamīdi miṭbaʿata dāri alkutubi almiṣriyyati

al-ttawḥīdiyyu ʾabū ḥayyāni ʿuliya bn muḥammadu bn alʿabbāsi 1988). albaṣāʾira wa-al-ddhakhāʾira taḥqīqun d widādu alqāḍī dāra ṣādira

al-ttawzaryy ʾabū mrwāni ʿabda almaliki bn al-krdbūs d t). aliktifāʾu fī ʾakhbāri alkhulafāʾi

taḥqīqun d ʻabdu alqādiri būbāyh j dāra alkutubi alʻilmiyyati

al-ttha'ālibiyyu ʾabū manṣūri ʻabdi almaliki bn muḥammadu bn ʾismāʻyl 2006). tuḥfata alwuzarāʾi taḥqīqa ḥabyba ʻaliyya al-rrāwī wa d ibtisāmu marhūnu al-ṣṣaffāri al-ddāra alʻarabiyyata lil-mawsūʻāti

al-ttha'ālibiyyu ʾabū manṣūri ʻabdi almaliki bn muḥammadu bn ʾismāʻyl 1994). khāṣa al-khāṣṣ taḥqīqa maʾamūna bn mḥyy al-ddīna aljinnāna dāra alkutubi alʻilmiyyati

ḥabannakat ʻabda al-Raḥmāni bn ḥusni almaydāniyyi al-ddimashqiyyi 1996). albalāghata alʻarabiyyata dāru alʻilmi

ibna ḥijjati alḥamūʾiyyi taqī al-ddīnu ʾabū bikri bn ʻaliyyu d t). thamarātu alʾawrāqi fī almuḥāḍarāti maṭbūʻun bihāmishi almustaṭrafi fī kullu fanni mustaẓrafi llʾabshyhyy maktabata aljumhūriyyati alʻarabiyyati

ibna ḥamdūnin muḥammada bn alḥusni bn muḥammadu bn ʻaliyyu 1996). al-ttadhakkurata alḥamdūniyyata taḥqīqun d ʾiḥsānu ʻabbāsu wabikru ʻabbāsu j dāra ṣādira

ibna khaldūnin walī al-ddīnu ʻabda al-Raḥmāni alʾishbyly 2004). muqaddamata ibni khaldūni taḥqīqa ʻabdi al-lhi muḥammadi al-ddarwīshi dārun yuʻribu

al-ddakhīlu ḥamida bn nāṣiru 1422). fanna al-ttawqīʻāti alʾadabiyyati fī alʻaṣri alʾislāmiyyi wa-alʾumawiyyi wa-alʻabbāsiyyi majallatu jāmiʻatin ʾami alqurā 13(22.(

al-ddurūbiyyu muḥammada maḥmūda wa jarrārun ṣalāaḥa muḥammada 2001). jamharata tawqīʻāti alʻarabi markazu zāyada lil-tturāthi wa-al-ttārīkhi

al-ddawriyyu ʻabda alʻazīzi 1981). alfikrata almahdiyyata bayna al-ddaʻwati alʻabbāsiyyati wa-alʻaṣri alʻabbāsiyyi alʾawwali dirāsātu ʻarabiyyatu waʾislāmiyyatu mhdāt ʾilā ʾiḥsāni ʻabbāsi aljāmiʻatu alʾamrīkiyyatu

raʻdāni ʻabda alkarīmi ḥassiyanna ʻaliyya 2012). fanna al-ttawqīʻāti fī alʾadabi alʻarabiyyi majallatu al-ddirāsāti alijtimāʻiyyati jāmiʻata alʻulūmi wa-al-ttiknūlūjīā 34.(

al-zzamakhshariyyu maḥmūda bn ʻumari al-khwārzmyy 1412). rabīʻa alʾabrāri wanuṣūṣi alʾakhyāri j muʾuassasata alʾaʻlamiyyi

al-ssuyūṭiyyu jalāala al-ddīni ʻabda al-Raḥmāni 2003). tārīkha alkhulafāʾi dāra ibnu ḥazmin

al-shryshyy ʾabū alʻabbāsi ʾaḥamida bn ʻabdi almuʾumini alqaysiyyi 1992). sharaḥa maqāmātu alḥarīriyyi taḥqīqa muḥammada ʾabū alfaḍli ʾibrāhym j almaktabata alʻaṣriyyata

ṣadīqun sāmmiyyata ḥamdī 2005). fanna al-ttawqīʻāti fī al-nnathri alʻarabiyyi taʾaṣīlun wataḥlīlun majallatu kulliyyati alʾādābi jāmiʻata almanṣūrati 36.(

ḍayfun shawqay d t). alfannu wamadhāhibuhu fī al-nnathri alʻarabiyyi ṭ dāra almaʻārifi

ʻabdu al-lhi yasrī ʻabdu alghaniyyi 2005). al-ttawqīʻāti fanna ʾadabī nasīnāhu majallatu almawqifi

al'adabiyyi ittiḥāda alkitābi al'aribi 413.(

quddāmatun 'abū alfaraji quddāmata bn ja'fari alkātibi albaghdādiyyi 1980). naqudi al-nnathra 'aw kitābi albayāni dāru alkutubi al'ilmiyyati

al-qlqshndyy shihāba al-ddīni 'aḥamida bn 'aliyyu bn 'aḥamida 1922). ṣubḥa al'a'shā fī ṣinā'ati al'inshā j dāra alkutubi almiṣriyyati

ibna qayyimi aljawziyyati 'abū 'abdi al-lhi muḥammadi bn 'abī bikri bn 'ayyūban 1423). 'a'ullāma almū'aqqi'īna 'an rabbi al'ālimīna taḥqīqa 'abū 'abīdatin mashhūra bn ḥusni 'āla sullamāni j dāra ibnu aljawziyyi

ibna manẓūrin muḥammada bn mkrm 1414). lisāna al'arabi j ṭ dāra ṣādira

alharawiyyu 'abū manṣūri muḥammadi bn 'aḥamida bn al'azhariyyi 2001). tahdhība al-llughati taḥqīqa muḥammada 'iwaḍa mur'ibin j dāra 'iḥyā'i al-tturāthi al'arabiyyi

al-hzāymh khālida muḥammada wa 'ubaydātun 'adnāni maḥmūda 2007). al-ttawqī'āti ḥattā nihāyati 'aṣri bunniyyi 'ummiyyatin majallatu al-tturāthi al'arabiyyi 106.(

The sultani's scholia "tawqīʿāt" in the first Abbasid era: Their rhetorical characteristics and regal manifestations

Mohammed Abdullah Alyasin(1)

Salah Mohammed Jarrar(2)

Abstract:

This research deals with the art of scholia)Tawqīʿāt) in the First Abbasid Era in general, scrutinizes its royal and Sultani's manifestations in particular, reviews the most important determinants of signature through definition and terminology, in addition to citing examples from its resources. It draws on its reasons and connections with those who say it, clarifies its concept, and indicates the authority of the said one, the superiority of his status, his wealth, and the well-being of his life. It also takes into account the context, the statement, and the circumstances of the mentioned person, his status, and his virtues as much as possible. The study concludes that the literary masterpieces in discourse have apparent royal characteristics that can be inferred from them, where the authority of the caliph, the king, the prince, the rulers of ministers, leaders, and their ilk is revealed. In addition, the political circumstance that Abbasid Caliphate witnessed in its early phase had a clear influence on the literary masterpieces in the discourses of its successors and leaders, even though emotional features, moral virtues and the ability to demonstrate still dominated the form of the literary masterpieces in discourse and its final output.

Keywords: scholia, manifestations, royalty, caliph, sultan, king.

(1) College of Arts, Humanities & Social Sciences - University of Sharjah (Sharjah – United Arab Emirates)
u18104407@sharjah.ac.ae

(2) College of Arts, Humanities & Social Sciences - University of Sharjah (Sharjah – United Arab Emirates)